وحينما يكون الكتاب هدي للمتقين .. فإن المتقين من خلال هداية الكتاب لهم ، كما أظهر ذلك المولي – عز وجل – من خلال معالمه ، ومشاهده ، وخطاباته ، أيقنوا بالآخرة ، ومن ثم كان القرآن الكريم سر ترقيهم من علم اليقين (علم العقل) إلي علم عين اليقين (علم الأحوال) ثم إلي علم حق اليقين (علم الأسرار) .

فعلم اليقين (علم العقل) هو علم يحصل نتيجة نظر في دليل ، بشرط الحصول على وجه ذلك الدليل وشبهه ، ولهذا يقولون في النظر منه صحيح ومنه فاسد . وبدايته ونهايته محدودة ، وهو علم مباح للناس كافة ، كما رزق الناس كافة العقل ، ومن سلم دليله صح يقينه ، واتضح معناه ، وعذب عند السامع .

والعلم الثاني عين اليقين المعبر عنه بعلم الأحوال ، وسبيله الذوق أو المشاهدة ، ولا يقدر عاقل أن يحده ، أو يقيم على معرفته دليلاً البتة ، وذلك كحديث حنظلة ، وشرط هذا العلم سلامة الإدراك والبراءة من الآفات ، وهو علم وسط بين علم اليقين ، وحق اليقين ، ولهذا يشترك فيه أهل السلوك (المتصوفة) وغيرهم ، ولكل إنسان ما ذاق وشاهد ، إذ لا يجوز إنكار الذوق على من ذاق ، ولا المشاهدة على من شاهد ، وفاقد الشيء لا حجة عنده ، ومن شاهد شاهد وحده .

أما العلم الثالث فهو علم حق اليقين والذي قد يعبر عنه بعلم الأسرار ، وهذا العلم خاص بأهل السلوك مع الله – تعالي – وهو علم المشاهدة والمكاشفة ، والعلم الجامع المحيط الشامل للمعارف

كافة ، العلم الذي هو للأنبياء أصلاً ، وللأولياء خلعة ومنحة ، وعلى العاقل أن لا يرده ، بل يتقبله ما دام لا يتعارض مع كتاب الله – تعالي – وسنة نبيه ﷺ فهو من أصول الشريعة نابع ، ومن نوافلها قائم ومجاهد ، فوقع له الزيادة في عالم الحقائق والمعاني ، وعلوم الأسرار ، وما يتعلق بعلوم الآخرة ، وتلك منحة المنح ، وغاية مراد المتقين .

مقامات اليقين

بينا – فيما سبق – تعريف المقام ، وذكرنا انه موضع قدم السالك ودرجته ، كما انه إقامته ومنزلته .

وهذا يعني منزلة السالك في طريقة الحقيقة ، وما اشتملت عليه الطريقة من درجات ومنازل، يرتقي من خلالها السالك إلي الله تعالي ، فالمقام هو الوصف الذي يثبت على العبد ويقيم ، فإن لم يثبت سمي حالاً .

هذه المقامات عبر عنها بالمنازل الروحية ، التى يمر بها السالك في طريقه إلي الله – تعالي – ، فيقف فيها فترة من الزمن مجاهداً في السمو الروحي ، هذه المنازل لابد لها من جهاد وتزكية ، لذلك كانت مكتسبة ، إنها اجتهاد في الطاعة والعبادة لله تعالي ، من خلالها ينتقل السالك من مقام إلي مقام حتى يصل من التوبة الصادقة إلي القرب من الله تعالي .

يذكر ابن عجيبة في إيقاظ الهمم : " أن لكل مقام علم وحال وعمل ، فأول المقام علم وهو عبارة عن الوارد الإلهي الحافز على سلوك الطريق ، ثم العمل وهو ما يقوم به السالك من

الرياضة والمجاهدة ، ثم تأتي الأحوال التي تعده لنوال المقام ، ويستمر السالك في التدرج عن طريق هذا الإطار الثلاثي حتى يصل إلي مقام المعرفة ليتنعم باليقين والمشاهدة " [١] .

فالأعمال حركة الجسم بالمجاهدة ، والأحوال حركة القلب بالمكابدة ، والمقامات سكون القلب بالطمأنينة ، فإذا دام العمل واتصل الحال صار مقاماً . فالأحوال تتحول وتذهب وتجئ ، فإذا سكن القلب في ذلك المعني صار مقاماً ، وهو مكتسب من دوام العمل ، والعمل لا يخرج عن كتاب الله – تعالي – وسنة حبيبه ﷺ في الأوامر ، والأفعال ، والأخلاق .

وأصول مقامات اليقين التي ترد إليها فروع أحوال المتقين أربعة ، منها يرتقي المتقي ويصل من خلالها درجة المقربين ، ومن ثم لزم المتقي هذه العمد الأساسية من أصول مقامات اليقين، وهي ما يلي على الترتيب المبين .....

١ – التوبة

التوبة أصل ثابت في سلوك القوم ، وهي أولي المقامات فمن لا توبة له لا حال له ولا مقام ، وهي تعني : الرجوع إلي الله – تعالي – من هوي النفس ، والوقوف مع الشهوات ، مع الندم على ما وقع من المخالفات ، والعزم على أن لا يعود لمثله،

---

١ – إيقاظ الهمم – ابن عجيبة / ٣١٩ .

قال تعالى : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (٢) .

والتوبة هذه لها بداية ونهاية " فبدايتها : التوبة من الكبائر ، ثم الصغائر ، ثم المكروهات ، ثم خلاف الأولي ، ثم من رؤية الحسنات ، ثم من رؤية أنه صار من فقراء الزمان ، ثم من رؤية أنه صدق في التوبة ، ثم من خاطر يخطر له في غير مرضاة الله تعالي " (٣) .

وأما نهايتها : فكلما غفل عن شهود ربه طرفة عين بدأ بالتوبة . لما علمت أنها أساس لكل مقام يرتقي إليه العبد حتى يموت ، فكما أن من لا أرض له لا بناء له ، فكذلك من لا توبة له لا حال ولا مقام " (٤) . فالتوبة تمحو ما قبلها ، كما أن الإسلام يمحو ما قبله ، وصحة التوبة مبني على ثلاثة شروط :

الأول منها : الندم على ما فات ورد التبعات .

---

١ – سورة النور من الآية : ٣١ .

٢ – سورة التحريم من الآية : ٨ .

٣ – أعذب المسالك المحمودية – السبكي ١ / ١٩٣ .

٤ – المصدر السابق – نفس الصفحة .

والثاني : المقام في الحال على أحسن الحالات ، ومراعات الحركات والسكنات .

الثالث : العزم على ألا يعود إلي قبح العادات .

أما أقسامها فهي على ثلاثة أقسام :

أولها : التوبة ، وثانيها : الإنابة ، وثالثها : الأوبة .

فمن تاب خوف العقوبة فهو صاحب توبة ، ومن تاب رجاء المثوبة فهو صاحب إنابة، ومن تاب حفظاً وقياماً بحق العبودية ، لا رغبة في الثواب ، ولا رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة .

ولقد أمر الله بها ونادي من خلالها المؤمنين فقال سبحانه : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .ففي الآية الكريمة بشارة عامة خاصة ، أما البشرة العامة فقد نادي المؤمنين بالرسالة الخاتمة ، العصاة والطائعين ، الموافقين والمخالفين ، وسماهم مؤمنين لئلاً تتمزق قلوبهم من خوف البعد والقطيعة ، واليأس من رحمة الله – تعالي – فهم من أتباع النبي ﷺ الذين آمنوا به ، أما البشارة الخاصة ففي الآية الكريمة إشارة خاصة تتعلق بالمؤمنين الطائعين ، وأمرهم بالتوبة لئلا يعجبوا بطاعتهم فيحجبهم العجب عن رضا الله تعالي ، ورضاه سبحانه هو غاية المطعين ، فعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال :

---

١ – سورة النور من الآية : ٣١ .

قال رسول الله ﷺ : " توبوا إلي الله تعالي ، فإني أتوب إليه كل يوم مائة مرة" [١].وقال ﷺ :"التائب من الذنب كمن لا ذنب له"[٢]

وأما الإنابة فهي صفة الأولياء المقربين الذين قاموا بحق العبودية ، خشية من الله – تعالي – وحبا فيه ، قال تعالي : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ،هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ،مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ [٣] .

أما الأوب فهي صفة الأنبياء والمرسلين ، يقول الله تعالي في أيوب – عليه السلام : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [٤] .

فشتان بين تائب من الذنوب والزلات ، وبين تائب من الهفوات والغفلات ، وبين تائب من رؤية الحسنات والطاعات .. لقد تفاوتت درجات التوبة حسب مقام العبد ومنزلته بين الخلق وعند الله – تعالي – ، ومن ثم قالوا : " حسنات الأبرار سيئات المقربين " ، إذ المطلوب من المقرب الزيادة في الطاعة إتباعاً للسلوك المحمدي ،حيث قال ﷺ حينما تفطرت قدماه من أثر

---

١ – رواه البخاري في الأدب (الجامع الصغير – السيوطي ١ / ١٣٤ وحسنه)

٢ – رواه ابن ماجة عن ابن مسعود – رضي الله عنه – (الجامع الصغير – السيوطي ١ / ١٣٤ وحسنة) .

٣ – سورة ق الآيات : ٣١ – ٣٤ .

٤ – سورة ص من الآية : ٤٤ .

العبادة ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، مجيباً على سؤال كان هذا مضمونه فقال : ﴿ أفلا أكون عبداً شكوراً ﴾ فرؤية الثواب ، وملاحظة العقاب ، عند المقربين نقص ، لأنه حينئذ خاف ما سوي الله – تعالي – ورجا غير مولاه ، والأصل في العبودية ، أن تكون خالصة لله استحقاقاً لربوبية ، وقياماً لعبوديته فالعامة حينما يتوبون تكون توبتهم من السيئات ، أما المقربين فإن توبتهم تكون من رؤية الطاعات وفي أدائها العظيم، ومن نظرهم إلي نفوسهم بها ، وهي منة من الله تعالي إليهم واصلة .

فالتوبة من أصل الأعمال ، لان الأعمال لا تصح إلا بها ، ولا تصح التوبة إلا بترك كثير من الحلال ، مخافة أن يخرجوا إلي غيره،حيث الكراهة فالمحرمات،والاستغفار قوت التوابين ، قال تعالي : ﴿ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ [١] . وقال سبحانه : ﴿ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ﴾ [٢] . ففي الآية الأولي قدم الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب ، والتوبة هي السبب إليها ، فالمغفرة أول في المطلوب ، وآخر في السبب [٣] . أما الآية الثانية فقد قدم التوبة ، وهذا يعني سؤال الله–عز وجل ستر الذنب [٤] .

---

١ – سورة هود من الآية : ٣ .

٢ – سورة المائدة من الآية : ٧٤ .

٣ – تفسير القرطبي ٤ / ٣٣٢١ .

٤ – المصدر السابق ٣ / ٢٣٤٣ .

فالاستغفار مع الذنب سؤال الستر من الله تعالي ، ومغفرة الله تعالي لعبده في حال ذنبه ، ستره عليه وحلمه عنه ، ولذلك قيل : ما من ذنب ستره الله تعالي على عبده في الدنيا إلا غفره له في الآخرة .

إن الله –عز وجل– أكرم من أن يكشف ذنبا كان قد ستره ، وما من ذنب كشفه الله في الدنيا إلا جعل ذلك عقوبة عبده في الآخرة ، فالله اكرم من أن يثني عقوبته على عبده .

هذا ولقد قرن الله – تعالي – الاستغفار للعباد ببقاء الرسول ﷺ في الأمة ، ورفع العذاب عنهم بوجوده فضلاً منه ونعمة ، قال تعالي : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [1] . وكان بعض السلف يقول : كان لنا أمانان ذهب أحدهما ، وبقي الآخر ، فإن ذهب الآخر هلكنا ، يعني ذهب الرسول ﷺ والذي بقي الاستغفار .

فالتوبة فريضة على العبد أيا كان من الخواص أو من العوام ، مطيعاً كان أو عاصياً ، قال تعالي : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2] .

---

١ – سورة الأنفال الآية : ٣٣ .

٢ – سورة التحريم الآية : ٨ .

ويقول الله – تعالي – في صورة من تجلي الرحمة ، وسعة شمول الرأفة بالعباد ، كي لا يقنطوا من رحمته جل وعلا : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) . ويلي هذه الآية مباشرة ما يبين الطريق إلي المغفرة والرحمة ، فيقول سبحانه : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ (٢) . وفي هاتين الآيتين يوجه المولي – عز وجل – الذين صدقوا في توبتهم إلي أن يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم – وهو ما جاء به ﷺ من القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة – فإذا صدقت التوبة لزم الإنسان أن يستقيم على جادة الطريق ، بحيث لا يعود للذنب مرة أخرى ، فيألفه الذنب ويكون الندم والحسرة : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) . حينئذ يكون الرد من رب العزة جل وعلا قاهراً ، حيث بين وهدي ، وكان الإعراض والاستكبار : ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) . ثم يبين المولي – عز وجل – حال هؤلاء المكذبين فيقول :

---

١ – سورة الزمر الآية : ٥٣ .

٢ – سورة الزمر الآيتان : ٥٤ ، ٥٥ .

٣ – سورة الزمر الآيتان : ٥٦ ، ٥٨ .

٤ – سورة الزمر : ٥٩ .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [١] . أما الذين استقاموا على جادة الطريق ، واتبعوا أحسن ما أنزل من ربهم ، فهم الناجون يوم القيامة : ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [٢] .

هذا ولقد تصح التوبة من بعض الذنوب دون بعض ، بخلاف السير إلي الله – تعالي – فإنه إنما يصح بالتوبة عن جميع الذنوب ، وتجب المبادرة بها فتأخيرها ذنب آخر .

ولا تنقض التوبة بالرجوع إلي الذنب ، ولو رجعت إليه في اليوم ألف مرة ويجب تجديدها عند كل رجوع إليه ، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال ، أذنب عبد ذنبا ، فقال : اللهم أغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالي : أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : أي رب أغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالي : عبدي أذنب ذنبا ، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : أي رب أغفر لي ذنبي،فقال تبارك وتعالي : أذنب عبدي ذنبا ، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب ، اعمل ما شئت فقد غفرت لك [٣] .

---

١ – سورة الزمر : ٦٠ .

٢ – سورة الزمر : ٦١ .

٣ – صحيح مسلم " كتاب التوبة – باب قبول التوبة من الذنوب وأن تكررت الذنوب والتوبة ٨ / ٩٩ .

وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل،حتى تطلع الشمس من مغربها " [١] .

فباب التوبة مفتوح حتى تشرق الشمس من مغربها ، وما على العبد إلا أن يسارع ، إذ التوبة أس كل كمال ، ومطلوبة من كل عاقل على كل حال ، ومن تأدب وأحسن قرع الباب فتح له ، ومن فتح له الباب فلن يشقي أبداً .

٢ – الصبر :

الصبر هو الأصل الثاني من مقامات اليقين ، وعمدة كل مقام ، وهو خلق كريم من أخلاق النبيين والصديقين ، قال تعالي : **﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾** [٢] .

والصبر في اللغة : حبس النفس ، يقال : قتل فلان صبراً أي أمسك وحبس حتى أتلف ، وتقول : صبَّرت نفسي على الشيء حبستها [٣] . والصبر قد يكون على أمر محمود بمعني المداومة عليه ، وعدم التبرم منه ، كما يقال : صبر على الطاعة ، وقد يكون على أمر مكروه وهو الصبر على البلاء ، بمعني تحمل شدته حتى يفرجه الله تعالي . وصبر عن المعاصي ...

---

١ – المصدر السابق – نفس الكتاب ، والباب ، ٨ / ١٠٠ .

٢ – سورة البقرة الآية : ٤٥ .

٣ – المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية ١ / ٥٢٥ مادة (صبر) .

يتعدى الفعل بعن ولا يتعدي بعلي ، فيقال : صبر عن الشهوة ولا يقال على الشهوة .

يقول ابن قيم الجوزية : " الصبر ثلاثة أنواع : صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على امتحان الله . فالأولان : صبر على ما يتعلق بالكسب . والثالث : صبر على ما لا كسب للعبد فيه ... ثم يقول : سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : كان صبر يوسف – عليه السلام – عن مطاوعة امرأة العزيز أكمل من صبره على إلقاء إخوانه له في الجب ، وبيعه ... فإن هذه الأمور جرت عليه بغير اختياره،ولا كسب له فيها ، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضي ومحاربة للنفس ... وكان يقول : الصبر على أداء الطاعات أكمل في الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلي الشارع من مصلحة ترك المعصية ، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية " (١)

ثم يقول رحمه الله – تعالي :

"وحقيقة الصبر على ثلاثة أنواع:صبر بالله ، وصبر لله ، وصبر مع الله" .

فالأول : الاستعانة به ، ورؤيته أنه هو المُصبر،وأن صبر العبد بربه لا بنفسه ، كما قال تعالي : ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ**

---

١ – مدارج السالكين – ابن قيم الجوزية ٢ / ١٢٠ .

بالله ﴾ [١] . يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر " [٢] . وقد أطلق صاحب اللمع على هذا (المتصبر) ، ومثل هذا يصبر أحيانا على المكروه ، وأحيانا يكون عاجزاً " [٣] .

والثاني : الصبر لله ، وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله ..... " [٤] ، وقد أسماه صاحب اللمع بـ (الصابر) وهو من يصبر لله وفي الله ولا يجزع ولا يشكو .... " [٥] . وأنشد بعضهم ما يدل على زيادة كتم الصبر وعدم الشكوي :

صبرت ولم أطلع سواك على صبري
وأخفيت ما بي منك عن موضع الصبر
مخافة أن يشكو ضميري صبابتي
إلي دمعتي سراً فتجري ولا أدري [٦] .

والثالث : الصبر مع الله ، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني ، ومع أحكامه الدينية .... أي قد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه ، وهو أشد أنواع الصبر ، وأصعبها وهو الصديقين [٧] . وقد أسماه صاحب اللمع بـ (الصبار) وهو :

---

١ – سورة النحل من الآية : ١٢٧ .
٢ – مدارج السالكين – ابن قيم الجوزية ٢ / ١٢٠ .
٣ – تاريخ التصوف في الإسلام – د . قاسم غني / ٤٠٠ .
٤ – مدارج السالكين – أن قيم الجوزية ٢ / ١٢١ .
٥ – تاريخ التصوف في الإسلام – د . قاسم غني / ٤٠٠ .
٦ – أقرب المسالك المحمودية – محمود السبكي ١ / ٣٠٥ .
٧ – مدارج السالكين – ابن قيم الجوزية – ٢ / ١٢١ .

من كان صبره في الله ، ولله ، ومن الله ، ورجل مثل هذا لو نزلت عليه بلايا الدنيا كلها لا يعجز،ولا يطرأ عليه أي تغير ... وقد سألوا الشبلي عن هذا فتمثل بهذه الأبيات :

عبرات خططن في الخد سطرا
قد قرأها من ليس يحسن يقرا
إن صوت المحب من ألم الشو
ق وخوف الفراق يورث ضرا
صابرَ الصَّبْرَ فاستغاث به الصَّبْرُ
فصاح المحبُّ بالصبر صبرا [1] .

وللصبر تعريفات متعددة جاءت حسب دورانها في فلك تلك الأقسام من الأحوال التي عليها العبد .... " قال عمرو بن عثمان المكي : الصبر هو القيام مع الله ، وتقبل البلاء بهمة وارتياح .

وقال الجنيد البغدادي : الصبر هو حبث النفس على أن تكون مع الله من غير أن تجزع .

وقال : الصبر تجرع كل مر بغير عبوس .

وقال : الصبر أن يكون حال المرء عند نزول البلاء كحاله عند زوال البلاء .

وقال أبو سليمان الداراني : إن لله عباداً يستحون أن يعاملوه بالرضا في الصبر ، أي أنني صبور بذاتي ، ولكن لم يكن شيء في الرضا،وأن يكون كما هو،فالصبر متعلق بك ، والرضا بأمره.

---

١ – تاريخ التصوف في الإسلام – د . قاسم غني / ٤٠٠ .

وقال محمد الحريري : الصبر هو ألا يختلف حال المرء في المحنة والنعمة باطمئنان النفس في الحالين ، والصبر سكون النفس في البلاء " (١) .

" وقال يحي بن معاذ : صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين ، واعجباً كيف يصبرون – أى المحبون – وانشد :

الصبر يحمد في المواطن كلها
إلا عليك فإنه لا يحمد

أي الصبر عنك فإنه مذموم ، وذلك لان الصبر يكون لله وبالله ، وعلى الله ، وهو محمود ، ويكون عن الله وهو مذموم لدلالته على قلة الرغبة في القرب منه ، وامتثال أوامره ، وتجنب نواهيه ، فهو بعيد عن الله ، وصبر المحبين عن الله محال لأنه ينافي المحبة " (٢) .

" وقيل : الصبر أن ترضي بتلف نفسك في رضي من تحبه ، كما قيل :

سأصبر كي ترضي وأتلف حسرة
وحسبي أن ترضي ويتلفني صبري (٣) .

فغاية الصبر أن يستغرق العبد جهده في الصبر ، ثم يري صبره قليلاً في جنب ما يليق بمولاه في مقام الصبر ....

---

١ – المصدر السابق / ٤٠١ .
٢ – أقرب المسالك المحمودية – محمود السبكي ١ / ٣٠٤ .
٣ – مدارج السالكين – ابن قيم الجوزية – ٢ / ١٢١ .

" فالصبر على الحضور مع الحق ، وعدم التفرقة بالخواطر الموجبة للتشتت ، والخروج عن الجمعية بالله ، وهو – أعني هذا الصبر – حقيقته التوقي عن ملاحظة الأغيار ، ورؤية الآثار ، ففي ذلك مرارة ومشقة شديدة في ابتداء الأمر ، فينبغي للسالك المكابدة للصبر على ذلك حتى تزول الوحشة ، ويحصل الأنس ، فينقلب صبره لذة ، وكراهته رضا ، وفرقته جمعا ، وجمعه فرقاً ، وينطوي بساط الصبر " [١] .

ولقد ذكر الله تعالى مادة صبر في القرآن الكريم في أكثر من مائة موضع [٢] ، وذلك من خلال الأمر به كما جاء في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ** ﴾ [٣] . ومن خلال النهي عن ضده كقوله تعالى : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ** ﴾ [٤] . والثناء على أهله ومحبته لهم : ﴿ **وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [٥] . ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾ [٦] . ومن خلال أنه خير لأصحابه وجزاؤه عند الله

---

١ – أعذب المسالك المحمودية – محمود السبكي ١ / ٣١٠ .

٢ – انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي / ٤٠٠ ، ٤٠١ مادة (صبر) .

٣ – سورة البقرة من الآية : ١٥٣ .

٤ – سورة الأحقاف من الآية : ٣٥ .

٥ – سورة البقرة من الآية : ١٧٧ .

٦ – سورة آل عمران من الآية : ١٤٦ .

بغير حساب ، قال تعالي:﴿وَلَئِن صَبَرتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [١] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [٢] ،وقوله جل شأنه : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [٣] ، وكذلك أيضاً من خلال البشري وضمان النصر والمدد ، قال تعالي : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [٤] ، وقال جل شأنه : ﴿ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [٥] ، ومن الإخبار بأن أهل الصبر هم أهل العزائم ، وأنهم نالوا ما نالوا من الفوز والنجاة ودخول الجنة إلا بالصبر ، قال تعالي : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [٦] ، وقال سبحانه : ﴿ وَالْمَلآئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [٧] .

لأجل هذا كله كان الصبر مفتاح الفرج ، وفضله عالي الدرج ، وأنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، وأصل عظيم من مقامات أهل اليقين ، لا ينال إلا بالاستعداد والمدد ، إذ

---

١ – سورة النحل من الآية : ١٢٦ .

٢ – سورة النحل من الآية : ٩٦ .

٣ – سورة الزمر الآية : ١٠ .

٤ – سورة البقرة الآية : ١٥٥ .

٥ – سورة آل عمران الآية : ١٥٢ .

٦ – سورة الشورى : ٤٣ .

٧ – سورة الرعد من الآيتين : ٢٣ ، ٢٤ .

فيه الخير كله ، فعن صهيب – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : " عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له "(١).

والصبر في هذا الحديث إنما هو صبر بالله . والصبر لله فوق الصبر بالله ، وأعلى درجة منه وأجل ، ذلك أن الصبر لله متعلق بإلهيته ، والصبر به متعلق بربوبيته ، وما تعلق بإلهيته أكمل وأعلى مما تعلق بربوبيته .

ولأن الصبر له : عبادة ، والصبر به : استعانة . والعبادة غاية . والاستعانة وسيلة ، والغاية مرادة لنفسها ، والوسيلة مرادة لغيرها .

كذلك – أيضاً – الصبر له : صبر فيما هو حق له محبوب له ، مرضي له ، وهو صبر الرسل والأنبياء والصديقين – والصبر به قد يكون في ذلك ، وقد يكون فيما هو مسخوط له ، وقد يكون في مكروه أو مباح – وهو صبر مشترك بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، فأين هذا من هذا "(٢) .

فإن قيل : أن الصبر بالله أقوى من الصبر لله ، فإن ما كان بالله بحوله وقوته ، وما كان به لم يقاومه شيء .. أما الصبر لله فهو صبر أهل الطاعة والعبادة ، وهم مع إخلاصهم أضعف من

---

١ – رواه أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه (الجامع الصغير للسيوطي ٢ / ٥٨) .

٢ – انظر مدارج السالكين – ابن قيم الجوزية ٢ / ١٢٩ ، ١٣٠ بتصرف .

الصابرين به . والإجابة عن هذا من خلال مراتب الصبر ، وهي أربعة :

إحداها : مرتبة الكمال وهي مرتبة أولي العزائم ، وهي الصبر لله وبالله ، فيكون صبره مبتغيا وجه الله ، صابرا به ، متبرئاً من حوله وقوته ، فهذا أقوى المراتب وأعلاها .

الثانية : أن لا يكون فيه هذا ولا هذا ، فهو أخس المراتب

الثالثة : مرتبة الصبر بالله هذه المرتبة يكون العبد مستعينا بالله متوكلاً على حوله وقوته ، ولكن صبره ليس لله ، ولا لمراد الله – تعالي – فهذا ينال مطلوبه ، ولكن لا عاقبة له ، بل ربما تكون عاقبته شر العواقب ، ذلك لأن صبرهم بالله لا لله ولا في الله ، ولهم من الكشف والتأثير بحسب قوة أحوالهم ، والحال كالملك يعطاه البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، وقد قيل : لو رأيت إنساناً يطير في الهواء ويمشي على الماء ولا يؤدي حق الله فلا تأمن له .

الرابعة : مرتبة الصبر لله ، هذه المرتبة صاحبها ضعيف النصيب من الصبر به ، والتوكل عليه ، فهذا له عاقبة محمودة فنصيبه من الله أقوي من نصيبه بالله ، وهذا حال المؤمن الضعيف "[1] .

من هذا يتبين أن الصابر بالله لا لله ، إنما هو حال الفاجر القوي ، أما الصابر لله وبالله فهو حال المؤمن القوي التقي ، أما

---

١ – انظر المصدر السابق ٢ / ١٣٠ ، ١٣١ .

الصابر لله لا بالله فهو حال المؤمن الضعيف ، أما من ليس لله ولا بالله ، فهو الخسران المبين .

لذلك كان صبر المتقين لله ، وبالله ، وفي الله ، فصبرهم عن المعصية كان حياء من الله – تعالى – ، إذ لا يستعان على معصيته – سبحانه – بنعمه ، انطلاقاً من حب الله – تعالى – وطلبه .

وأما صبرهم على الطاعة فكان بالمحافظة عليها دواماً ، والإخلاص فيها ، ومراعات أوقاتهم من خلالها ، بحيث يكون العبد في طاعة دائمة لله ، وبالله ، وفي الله .

أما صبرهم في البلاء فلعظم العطاء ، وترسيخ أقدام أهل البلاء (يبتلي المرء على قدر دينه)، ومشاهدة حسن اختيار الله في البلاء ، والرضا بالقضاء ، ومقابلة ذلك كله بالحمد والشكر .....

٣ – الشكر :

يقال:شكر الله،ولله،ونعمة الله.وفي التنزيل العزيز : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ ﴾ [١]

والشكر : " عرفان النعمة وإظهارها والثناء بها . و – من الله : الرضا والثواب " [٢] .

---

١ – سورة البقرة من الآية : ١٧٢ .

٢ – المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية ١ / ٥٠٩ مادة (شكر) .

والشكور : مبالغة الشاكر . وفي التنزيل العزيز : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (١) . و – من صفات الله عز وجل : المثيب المنعم بالجزاء ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٢) . ومن تبدو عليه آثار النعمة جلية من الإنسان وغيره " (٣) .

فالشكر : اعتراف على وجه الخضوع بنعمة المنعم سبحانه

هذا الاعتراف ينبئ عن تعظيم المنعم – سبحانه – من حيث إنه منعم على العالمين . سواء على الشاكر أم غيره ، وهو مقام النبيين والصديقين ...

يقول ابن القيم : " الشكر منزلة من أعلى المنازل ، وهو فوق منزلة " الرضي " وزيادة ، فالرضي مندرج في الشكر ، إذ يستحيل وجود الشكر بدونه .. وهو نصف الإيمان ... والإيمان نصفان : نصف شكر ، ونصف صبر " (٤) .

ويقول عبد الرزاق القاشاني : " الشكر أحد أقسام الأخلاق التي عرفت أنها لطالب الحق بمنزلة الأركان للصلوات ، وأول الأركان : الصبر ، ثم الشكر ، لان في الصبر الثبات على الطاعة ، وترك المعصية ، وفي الشكر الاعتراف بأنعام المنعم .... ثم يذكر ما روي أن داود عليه السلام قال :

---

١ – سورة سبأ من الآية : ١٣ .

٢ – سورة فاطر من الآية : ٣٤ .

٣ – المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية ١ / ٥٠٩ مادة (شكر) .

٤ – مدارج السالكين – ابن قيم الجوزية ٢ / ١٨٦ .

" يا رب كيف أشكرك ، والشكر نعمة أخرى منك أحتاج عليها إلي شكر آخر "

فأوحي الله إليه : يا داود إذا علمت أن ما بك من نعمة فهي مني ، فقد شكرتني ، وإن لم تذكر ذلك بلسانك " [١] . ثم يقول :

وهذا هو الشكر له تعالي ، على نعمه التى لا تحصي فمنها الشكر على نعمة التخلق أولاً ، ثم الشكر له على نعمة الهداية والتوفيق ثانياً ، ثم على التأييد في آداء الحقوق ثالثاً ، ثم على البلوغ إلي رتبة التحقق رابعاً ، ويندرج في الشكر الصدق ، والتواضع ، والحياء ، والخلق ، والإيثار ، والكرم ، والفتوة ، لأن هذه الأوصاف أوصاف الأشراف الذين اعترفوا بالنعمة فتخلقوا بها شكراً للمنعم " [٢] .

فالشكر مقام شريف أمر الله به ، ونهي عن ضده ، وأثني على أهله،ووصف به خواص خلقه ، وجعل أهله في مزيد دائم ، ... وكفاهم فضلاً أن اشتق لهم اسما من أسمائه ، وحباهم بحبه ، فهو سبحانه " شاكر " و " شكور " وسمي الشاكرين بهذين الاسمين قال تعالي : ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [٣] . وقال سبحانه : ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [٤] . وقال جل شأنه : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ

---

١ - لطائف الإعلام – عبد الرزاق القاشاني ٢ / ٤١ .

٢ - المصدر السابق ٢ / ٤٢ .

٣ - سورة البقرة من الآية : ١٥٨ .

٤ - سورة النساء الآية : ١٤٧ .

أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (١) . ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٢) .

وفيما يتعلق بإعادة هذين الاسمين للشاكرين ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (٣) .ويقول جل شأنه : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (٤) . وقرن عبادته بشكره ، وأمرنا بهما ، فقال سبحانه : ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٥) .

يقول سعيد النورسي : " إن أجل عمل يطلبه الخالق الرحيم من عباده هو : الشكر ، فيدعو الناس إلي الشكر دعوة صريحة واضحة ، ويوليه أهمية خاصة بإظهاره أن الاستغناء عن الشكر تكذيب للنعم الإلهية ، وكفران بها ، ويهدد إحدى وثلاثين مرة في سورة (الرحمن) بالآية الكريمة : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تهديداً مرعبا ، وينذر الجن والإنس إنذاراً مهولا ببيانه : أن عدم الشكر والأعراض عنه تكذيبٌ وإنكار وجحود " (٦) .

---

١ - سورة فاطر الآية : ٣٠ .

٢ - سورة الشورى : ٢٣ .

٣ - سورة الإنسان الآية : ٣ .

٤ - سورة الإسراء الآية : ٣ .

٥ - سورة الزمر الآية : ٦٦ .

٦ - من كليات رسائل النور (٧) الشكر - سعيد النورسي / ٦٨ .